الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

فكر

مصادر ماركس

من أين جاء كارل ماركس بهذه التركيبة المتشعبة والمعقدة من الأفكار المبدعة؟ من أين استقى، وأيضاً، ابتكر طقماً من المفاهيم المترابطة والمتماسكة التي لن تكون دليل عمل نضالي للطبقة البروليتارية الأوروبية، وغير الأوروبية، في القرن التاسع عشر والقرون التالية، وحسب، وإنما زاداً معرفيا، كذلك، لأجيال من الفلاسفة والمنظرين في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية المختلفة، ولقوى وأحزاب ومؤسسات سياسية وعلمية وأكاديمية شتى؟ ما هي المواد النظرية (المعرفية) الأولية، ومعطيات التجارب الخام التي استثمرها في بناء منظومته الفكرية الجبارة؟ ما هي المنعطفات الحاسمة في تطوره الفكري؟ ومن هم المفكرون الذين ألهموه أكثر من غيرهم؟ وبعبارة أخرى: كيف تكوّن هذا الوعي الحاد بالواقع والتاريخ، وهذه القدرة المنهجية على رصدهما واكتشاف قوانين حركتهما؟ كيف نضج، إلى هذا الحد المذهل، ذلك العقل التحليلي ـ التركيبي ليؤسس مدرسة سياسية ـ فكرية تكون لها أعمق الأثر في فكر العقود والقرون اللاحقة، وليبلور منهجاً علمياً بالغ الفعالية والخصوبة سيُحدث انتقالة نوعية في حقول العلوم الاجتماعية كافة؟.

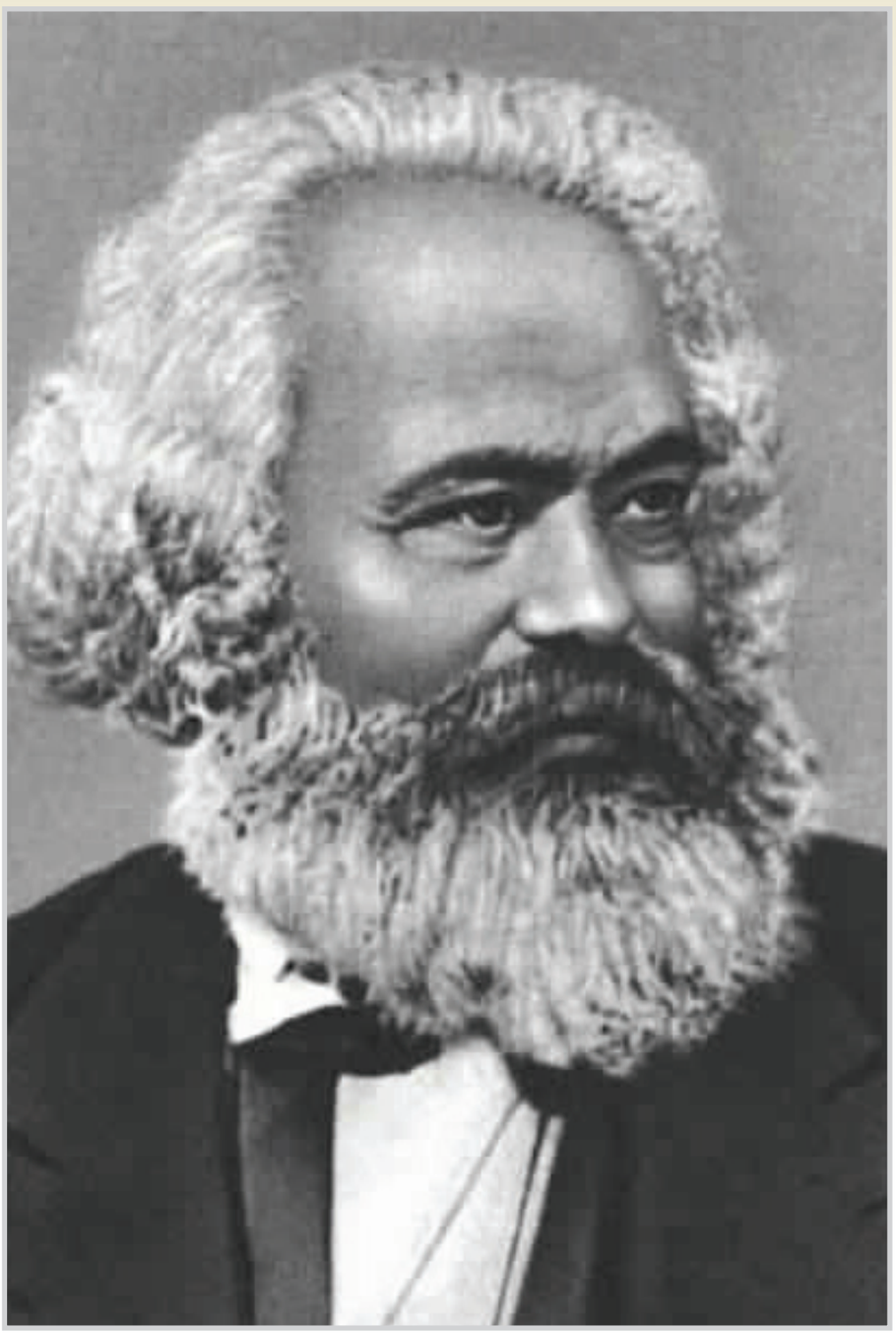

(١-٢)

سعد محمد رحيم

بدأ ولع كارل بالقراءة، بتشجيع من والده، منذ سني طفولته الأولى. وكان صبياً حين غرس فيه البارون لودفيغ فون فستفالم (صديق والده، ووالد زوجته جيني، فيما بعد) حب الشعر والموسيقى. وفي أثناء جولات السير في حدائق هامستيد هيث الساحرة.. كان البارون (فستفالم) ينشد مقاطع شعرية لهوميروس وشكسبير ودانتي وغوتة وكان الشاب (كارل) يحفظ عن ظهر قلب.

في ٢٥ أغسطس/ آب ١٨٣٥ تخرّج كارل ماركس من كلية تريير (مسقط رأسه)، وليست ثمة معلومات كافية عن صداقاته وقراءاته في هذه المرحلة من حياته. وتؤكد شهادة تخرجه، بتوقيع مدرّسيه، على قدرته في "فهم وتفسير أكثر الفقرات صعوبة في المواد الكلاسيكية، وخاصة تلك الفقرات التي تكمن صعوبتها، لا في غرابة لغتها، بل في موضوعها وعلاقات الأفكار فيها". ودرس ماركس الحقوق، في عام ١٨٣٥، في جامعة بون، ومن ثم في عام ١٨٣٦ في جامعة برلين، من غير أن يهتم كثيراً، أو يحضر سوى محاضرات محدودة (إلزامية) في الحقوق والتاريخ والفلسفة. لكنه اكتسب ثقافة ثرية وعميقة من خلال قراءاته، إذ لم تكن بوسع جامعة في حينها أن تشبع نهمه إلى المعرفة، أو ترضي عقله الخارق، وذكاءه الوقّاد.

وعلى الرغم من يفاعته كان يتعاطى مع الأفكار بعدّه مفكراً مستقلاً، غير أن هاجساً آخر كان يسكنه هو هاجس الأدب والشعر. وقد أنجز ثلاث كراسات أدبية، وهو لما يزل طالباً، أهداها لخطيبته جيني (زوجته لاحقاً) هي ديوان شعر ومسرحية شعرية وراوية بعنوان (العقرب وفيلكس). وسيدرك سريعاً أنه غير مؤهل لكتابة الشعر وإنما لشيء آخر. وقد استفاد من موهبته الأدبية في تدوين أفكاره الفلسفية والسياسية، فجاءت دراساته ومقالاته ذات لغة جذابة وطراوة وجمال في التعبير والأسلوب. فرفعته، كما يقول كاتب سيرته فرانز مهرنغ "القدرة الرمزية التي تتمتع بها لغته إلى مصاف أعظم الأدباء الذين كتبوا بالألمانية، وكان يعلّق أهمية كبيرة على التناسق الجمالي في كتابته".

لم يكن ماركس اليافع يستقر على حال.. انتقل من الشعر إلى الحقوق إلى الفلسفة.. ترجم كتابين من كتب جوستينيان القانونية إلى اللغة الألمانية، وحلم بوضع فلسفة للقانون. وهذه المعزوفة المشؤومة، مثلما يسميها، استهلكت منه ثلاثمئة دفتر. وعرّج إلى الفلسفة ونصب عينه وضع نظام ميتافيزيقي جديد، قبل أن ينتبه إلى أن جهوده تذهب سدى. وكان يقوم بتلخيص الكتب التي يقرؤها خلال سنوات دراسته، مع تدوين أفكاره وملاحظاته حولها.

"قرأ لاوكون بقلم لسنغ، وغيرفن بقلم سولجر، وتاريخ الفن لوينكلمان والتاريخ الألماني للودن...كذلك ترجم جرمانيا لتاسيتس، وبدأ تعلم الإنكليزية والإيطالية بمفرده.. ثم قرأ القانون الجنائي لكلاين، وكذلك الحوليات. كما قرأ كل الإنتاج الأدبي الحديث".

كانت الانعطافة الأولى المهمة في التطور الفكري لكارل ماركس هو تعرّفه على أعضاء نادي الهيغليين الشباب وانضمامه إليهم في غضون ثلاث سنوات بعد ربيع ١٨٣٨. وفي هذه الأونة كانت الفلسفة الهيغلية هي الفلسفة الرسمية للدولة البروسية.

وقد تأثر ماركس بشكل كبير بأعضاء في النادي منهم برونو باور المحاضر في جامعة برلين، وكارل فردريك كوبن الأستاذ في مدرسة دوروثين الثانوية، واللذان رأيا في ماركس شاباً (عمره ٢٠ سنة وكانا يكبرانه بعشر سنوات) ذو موهبة، وملكة فكرية متفوقة. وفي النهاية أغضبت فجاجة السلوك والروح الاستعراضية لمجموعة الهيغليين الشباب ماركس فبادر إلى انتقادهم بقسوة قبل الانسحاب من حلقتهم. فعاب عليهم عدم تفحصهم "المقدمات الفلسفية لنقدهم، فلو إنهم فعلوا ذلك، لأمكنهم، عندئذ، استيعاب فلسفة هيغل".

كان على ماركس أن يتحرى عن جذور الفلسفة الغربية. أي أن يمعن في دراسة نتاجات الفلاسفة الإغريق (الشكوكيون والرواقيون والأبيقوريون) وعلاقتهم بالفلسفة الإغريقية التأملية، فقدم رسالته للدكتوراه إلى جامعة يينا باحثاً في الفروقات بين الفلسفة الطبيعية عند أبيقور ومثلها عند ديمقريط. وكان ديمقريط مادياً، وفي إطار فلسفته حدد أنه "من لا شيء لا يمكن أن ينجم شيء. ولا شيء كائن يمكن أن يُفنى، وكل تغير ليس إلاّ اتحاد أو انفصال جزئيات، ولا شيء يحدث عرضاً، بل كل شيء يحصل بسبب وبالضرورة. ولا شيء كائن غير الذرات والفراغ، وكل ما عدا ذلك رأي".

تبنى أبيقور هذا المفهوم للطبيعة وأدخل عليه بعض التعديلات وأشهرها ما يسمى (انحراف الذرات). وقد عدّ ابيقور فيلسوف الحواس في مقابل افلاطون فيلسوف العقل.

شجب ماركس "لا مسؤولية أبيقور في تفسيره للظواهر الفيزيائية". موضحاً أن أبيقور كان يبغي الحقيقة استناداً إلى شواهد حواسه. لكن ماركس أكبر في أبيقور انطواء فكره (على عكس ديمقريط) على ما اسماه (المبدأ المحرّك) والذي جعله يثور على اللاهوت ووطأته الثقيلة. واستخلص ماركس "أن ابيقور هو فيلسوف الوعي الذاتي البشري الحر، حتى لو جرى النظر إلى هذا الوعي الذاتي في شكل الفردية فقط". ورأى ماركس في بروميثيوس، الثائر على الآلهة، أنبل قديس وشهيد في تاريخ الفلسفة. وإذ ضمّن هذه الأفكار في المقدمة التي أراد نشرها مع أطروحته أصاب هذا الأمر صديقه باور بالذعر والذي وجد في مثل هذه الأطروحات الحادة "تهوراً لا ضرورة له" يمكن أن يثير ضد ماركس المحافظين والتقليديين.

إن ذكاء ماركس وقدرته على هضم أشد المنظومات الفلسفية تعقيداً والتعامل معها بمنهج تحليلي نقدي، مع مراجعته لقناعاته نقدياً أيضاً، كشف مبكراً عن مشروع مفكر سيقيض له تغيير وجه الفلسفة، ومن ثم مسار التاريخ.

في عام ١٨٤١ نشر لودفيغ فيورباخ كتابه (جوهر المسيحية) محققاً صدمة هائلة في الأوساط الفكرية الجرمانية والأوربية، وهازاً أسس القناعات لكثر من أتباع هيغل اليساريين.. يعلّق فرانز مهرنغ على أصداء الأفكار الجريئة لفيورباخ وكيف أنه "ألقى بكل فلسفة هيغل إلى كومة النفايات، وأعلن أن (الفكرة المطلقة) ليست غير الروح الميتة للاهوت، وهي بذلك ليست إلاّ إيماناً بالأشباح". فيما أشار فردريك أنجلس إلى الأثر المحرر للكتاب معترفاً بالحماسة العامة الشاملة التي أحدثها والطريقة التي بها "أصبحنا جميعاً أتباعاً لفيورباخ في الحال". وهكذا مارس فويرباخ تأثيراً كبيراً على تطور ماركس الفكري بشهادة أنجلس نفسه. ومنذ البدء أعلن ماركس بعض التحفظات على أفكار فويرباخ إلاّ أنه رحّب بها. وعاد فويرباخ في عام ١٨٤٣ ونشر كتابه الثاني (دراسات مؤقتة في إصلاح الفلسفة).

كان ماركس منغمراً في الحياة السياسية العامة، ويكتب في صحيفة (راينيخه تزايتونغ) مقالات نارية عن الوضع السياسي القائم في الولايات الجرمانية. وحين ظهر كتاب فيورباخ كان من الضروري التنبه إليه وإبداء رأي نقدي حوله.

أوضح فيورباخ أن الفكر صفة من صفات الذات الإنسانية، يصدر عن هذه الذات ولا تصدر الذات عنه. وإن الإنسان هو جوهر كل نشاط إنساني وكل علاقة إنسانية. فيما الدولة، بعكس اعتقاد هيغل حقيقة في خدمة الإنسان وليست فوقه أو أسمى منه. وأن "الإنسان هو الذي يصنع الدين وليس العكس، وأن الكائن الأعلى الذي تخلقه مخيلة الإنسان ليس إلاّ الانعكاس التخيلي لوجود الإنسان ذاته". ولم تكن فلسفة هيغل في رأي فويرباخ "سوى لاهوت معقلن، وأن فلسفة هيغل التأملية، هي نظرية صوفية في التاريخ". وقد كتب ماركس إلى روغه مبيناً "أن حكم فيورباخ لا تبدو لي مستساغة من ناحية واحدة فقط هي بالتحديد أنها تشغل نفسها كثيراً بالطبيعة ولا تبدي إلاّ القليل من الاهتمام بالسياسة". ويمكننا تفهم اعتراض ماركس الذي كان يعي مبكراً ضرورة وحدة الفكر والممارسة، وكيف أن الفلاسفة اكتفوا بتفسير العالم فيما يقتضي الواجب، اليوم، تغييره. وفي (مخطوطات باريس) التي تضمنت كتاباته في تلك المرحلة المبكرة لم يخرج ماركس عن خط فيورباخ كثيراً في نقده لهيغل، بيد أنه ميّز نفسه عنه "في تفسيره لقانون نفي النفي الهيغلي" ففيورباخ لم يفهم بحسب ماركس قانون نفي النفي إلا كعملية فكرية أتاحت لهيغل أن يؤكد الفلسفة اللاهوتية (المعقلنة) "بعد أن كان قد نفى سابقاً وجودها". أما من وجهة نظر ماركس فإن هذا القانون شكّل "نظرة جديدة عن الوجود بوصفة صيرورة وتاريخاً، تضفي طابعاً ثورياً على الفلسفة نفسها".

كان المنطلق لكل من ماركس وفيورباخ هو فلسفة هيغل.. الأول مهتم بما يتعلق بالقانون والدولة فيما الثاني مهتم بما يتعلق بالطبيعة والدين فيها. وكان فيورباخ يعتقد "أن فلسفة حقيقية متناغمة مع الحياة الإنسانية يجب أن تكون ذات أصل غالي ـ جرماني" أي بقلب فرنسي (يثوّر) وعقل ألماني (يُصلح). وهذه الفكرة كانت توافق مزاج ماركس الشاب.

بعد زواجه في عام ١٨٤٣ انتقل ماركس مع زوجته إلى باريس للعمل مع روغه في مجلة (دويتشر فرانزوسيش ياربشر). هنا أرسل ماركس رسالة إلى فيورباخ يطلب منه كتابة مقالة للعدد الأول من المجلة يرد فيها على أفكار شيلنغ الخيالية، لكن فيورباخ رفض بود، مذعناً للعاصفة النقدية التي تحاصره، ومفضلاً العزلة جسدياً وفكرياً. وفي عام ١٨٤٥ خرج ماركس بكتابه الشهير (دراسات عن فيورباخ) وفيه يأخذ على الفيلسوف الألماني (المادي) نظرته التجريدية إلى التاريخ، وانطلاقه من الإنسان الفرد البرجوازي المعزول، في حين أن الإنسان بحسب المبدأ الماركسي يتحدد بمجموع علاقاته الاجتماعية.

لم تتعد ما نشره ماركس في مجلة ياربشر المقالتين عنون أولهما بـ (مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيغل) وفيه أوضح أن "مفتاح فهم التطور التاريخي يكمن في دراسة المجتمع الذي يحتقره هيغل، وليس في دراسة الدولة التي يمجّدها". ومبيناً، وهو ينطلق من أطروحات فيورباخ حول الدين أن "الإنسان هو عالم البشر، هو الدولة وهو المجتمع. إنه عالم أنتج الدين وعياً مقلوباً للعالم لأن العالم ذاته مقلوب".

وبحماسة الشباب، ولكن ببراعة تحليلية أشار ماركس إلى أهم شروط الثورة الضرورية في ألمانيا وهي تكوّن طبقة "قيودها جذرية وهي حقل لا يستطيع أن يحرر نفسه دون أن يحرر كل حقول المجتمع كذلك.. طبقة لا تستطيع أن تربح ذاتها إلاّ عبر إعادة كسب كاملة للإنسانية". وهذه الطبقة هي البروليتاريا.

أما المقالة الثانية فكانت سلسلة من الملاحظات حول كتابين لبرونو باور حول المسألة اليهودية. وفي تلك المقالة يقارن ماركس بين شكلين للتحرر هما التحرر السياسي والتحرر الإنساني، متحرياً عن جذور الارتباط بين المجتمع والدولة. يقول؛ "عندما يدرك الإنسان قواه الذاتية وينظمها كقوة اجتماعية، وبالتالي لا يعود يفصل القوة الاجتماعية عن نفسه على شكل قوة سياسية، عندئذ وعندئذ فقط يكتمل انعتاق الإنسانية".

وخلال إقامته في باريس انكب ماركس على دراسة الفلسفة المادية عند ديكارت وجون لوك معطياً "قدراً أكبر من الاهتمام للفرع الذي نشأ مع لوك وتطور إلى العلم الاجتماعي". وأفصح عن إعجابه بكل من أفكار هليفيتوس وهولباخ "اللذين حملا المادية إلى الحياة الاجتماعية، وجعلا المساواة الطبيعية بين العقول البشرية والوحدة الجوهرية بين تقدم العقل وتقدم الصناعة الفضيلة الطبيعية للإنسانية، كما جعلا القوة الحاضرة أبداً للتربية النقطة الرئيسة في النظام الذي وضعاه".

بات ماركس، وهو في منفاه الباريسي، يدرس بشغف وعبر رؤية نقدية فاحصة الشيوعية والاشتراكية مثلما طرحها وروّج لها مفكرو فرنسا الطوباويون والفوضويون العظام. وهنا، في هذا المناخ الفكري الخصب كانت أسماء سان سيمون وفورييه وسيسموندي وباكونين وبيكير ولويس بلان وفيدال وبرودون وغيرهم تتردد بحرارة وقوة. وسيقول ماركس كلمته في حسن نيتهم بالدولة وبإمكانية طرق السبيل السلمي لتحقيق الاشتراكية، والتي رأى ماركس أنها لن ترى النور، ولن تتحرر الطبقة البروليتارية من الاستغلال الرأسمالي، إلا بالثورة (البروليتارية). ذلك أن الدولة تظل عاجزة عن "إلغاء الظروف التي كانت هي ذاتها ثمرة لها".

وبالضد من فوضوية برودون لمح ماركس إلى الكتابات اللامعة لويتلنغ (الخياط الألماني). وسيعلن ماركس تصنيفه الشهير لمواقع وأدوار بروليتاريات أوروبا، حيث البروليتاريا الألمانية هي (المنظر) والإنكليزية هي (الاقتصادي) فيما الفرنسية هي (رجل السياسة). وتلك قطعاً من تخريجات حماسة الشباب.

في هذا الوقت الذي كان فيه كارل ماركس، وبعد أن تشبّع بالفلسفة الألمانية، كان يتعرف على الاشتراكية الطوباوية، وأيضاً على الإرث الفكري للثورة الفرنسية، فيما صديقه المرتقب (فردريك أنجلس) المتشبع بالفلسفة الألمانية هو الآخر كان يتعرف على الثورة الصناعية عن كثب، على استغلال الطبقة البرجوازية (التي كان أنجلس ينتمي لها) للطبقة العاملة التي كانت تعيش وضعاً مأساوياً ومزرياً. وكذلك كان أنجلس يطّلع على نتاجات الاقتصاديين الإنكليز (آدم سمث وديفيد ريكاردو ومالثوس وغيرهم). وسيكون لقاء الشابين (ماركس وأنجلس) مناسبة لذلك التفاعل لاحقاً بين الفلسفة الألمانية والاشتراكية الطوباوية الفرنسية والاقتصاد السياسي الإنكليزي، مصادر الماركسية الثلاثة الكبرى، والتي انطلاقاً منها ستنشأ، بحسب لينين أقسام الماركسية الثلاثة؛ المادية الجدلية والمادية التاريخية والاقتصاد السياسي الماركسي.

عقول مهاجرة

العالم العربي والطرد المركزي للأدمغة

محمد الدعمي

للمرء أن يزعم أن ظاهرة نزيف العقول أو الأدمغة تشكل مؤشراً مهماً لما تعانيه المنطقة برمتها من حال اللا استقرار والخوف الهاجسي من الحروب والصراعات الدموية، الإقليمية والبينية، وحتى الداخلية أو الأهلية. ثمة شعور وسواسي يخامر أصحاب الكفاءات يفيد أن الشرق الأوسط بأغلب كياناته السياسية، مقبل على سنوات سود من الفوضى والصدامات المسلحة و اللااستقرار . مثل هذا الشعور لم يكن موجوداً أو متوقعاً في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، إذ كان الصراع العربي الإسرائيلي شأناً قابلاً للتأجيل وحتى للإغفال، شأناً لا يتعدى حدود المبارزات اللفظية والتحديات الإذاعية (التي بزّ بها العرب سواهم من الأمم)، حتى اندلاع حرب ٥ يونيو/ حزيران إذ قدمت تلك الهزيمة المريرة جوازات السفر لعدد من الأحزاب والحركات السياسية باتجاه الهيمنة على السلطات في بلدان عدة باسم "تحرير فلسطين" وتحت شعار "كل شيء من أجل المعركة". وهكذا بقيت هذه الأنظمة الطارئة على السلطة بانقلابات عسكرية سود جاثمة على صدور الشعوب العربية المبتلاة بها في انتظار "تحرير القدس"، وفي انتظار المعركة الحاسمة التي لم تحدث ولا يبدو بأنها ستحدث كي يعبأ كل شيء من أجلها. وهكذا راحت بعض الدول العربية تفقد ما كان كافياً لاستمالة العقول الذكية والعبقرية للبقاء في أوطانها، حتى صار انتظار المعركة الحاسمة شيئاً غيبياً مبهماً: إذ لا ندري متى ستندلع؟ مع من؟ إذ سرعان ما حمل الزمان لنا أعداءً جدداً لم يكونوا يخطرون على بال أحد، بينما حملت لنا السنون معارك فرعية كانت دفينة غير قابلة للملاحظة: منها المعارك الطائفية والمعارك البينية والنزاعات الحدودية والخصومات المذهبية أو الإثنية إلى آخر قائمة المعارك التي لا تنتهي. كيف لنا إذاً أن نتوقع، ليس من أصحاب الكفاءات والعقول المستنيرة أن تخفق من تشخيص أمراض المنطقة التي لا تبشر بغير الشرور والتشاؤم؟!

الأنظمة الثورية التي شحنت الجماهير وزرعتها على أرصفة الشوارع "في انتظار المعركة" أو "لتحطيم مؤامرات الاستعمار" سرعان ما استدرجت هذه الأنظمة المزيفة إلى المنافسات البينية المبتناة على التخوين، الأمر الذي قادها إلى الإخفاق في قيادة شعوبها نحو الحياة الطيبة والمستقرة: كل ذلك جرى "في انتظار المعركة"، حتى سيقت هذه الشعوب نحو غياهب الأزمات الاقتصادية والقحط والحصارات، الأمر الذي قاد إلى عملية "طرد مركزي" منظم للعقول الذكية والمتخصصة من الجامعات العربية التي تحولت إلى حقول ملغومة بالبوليس السري الذي قد يأتيك بالنبأ العظيم من تلميذك أو تلميذتك أو من زميلك أو زميلتك في الجامعة! وهكذا راح مشوار انتظار المعركة يطول ليتحول إلى نوع من الاستحالة إلى حال من الخوف والرعب الدائمين بسبب المعارك التي اصطنعتها تلك الأنظمة الانقلابية الطارئة كي تعسكر المجتمعات المنكوبة بها وتحيل الدرس الجامعي والبحث العلمي إلى مسيرات استعراض عسكري: "يس يم" أي "شمال يمين"، فإذا بالكفاءات النادرة تساق إلى ساحات الجامعات كالخراف في مسيرات عسكرية حتى تأتي المعركة بينما يراقب جلاوزة تلك الأنظمة هذه الكفاءات المهانة بنوع من اللذة والتشفي، وكأن العقول الذكية إنما هي "عدو تلقائي" للأنظمة الشمولية الحمقاء. لاحظ أنه في مناسبة طريفة، عندما كان يساق أساتذة الجامعات العراقية إلى الميزان، بغض النظر عن مرتباتهم العلمية، بهدف وزنهم وتقرير فيما إذا كانوا لائقين جسدياً، قام أحد الصحفيين باستراق اللقطات الصورية لهؤلاء الأساتذة وهم ينتزعون أحذيتهم فتتبين جواربهم الممزقة كي ينشرها في اليوم التالي في الصحيفة، كناية عن ضعف حال الأستاذ الاقتصادي. وإذا بالبوليس السري يزور هذا الصحفي بعد منتصف الليل ليحتفظ به إلى ما لا نهاية.

في هذه اللحظة التاريخية وأثناء "معارك التحرير" الثانوية كتحرير "الأحواز وعربستان" و"الأسكندرونة" من بين سواها من الأراضي العربية السليبة، لعبت دول الخليج العربي الفتية والغنية بالبترول دوراً تسكينياً وتهديئياً على سبيل الاحتفاظ بما بقي للعرب من عقول مستنيرة وكفاءات جديدة، إذ أنها أتاحت فرص التوظيف لأعداد لا بأس بها من هذه العقول، الأمر الذي خفف من وطأة "إخفاق الرؤية" لدى هذه العقول. إلا أن هذه الحال لا يمكن أن تدوم طويلاً نظراً لتنامي مخرجات وأعداد هذه العقول وبسبب تعاظم وعبور الأمراض الاجتماعية الحدود الدولية من بلد عربي لآخر دون حاجة لتأشيرات دخول أو خروج!

إن الذي لم يفهمه "الثوريون العرب" هو أنهم لا ثوريون ولا هم يحزنون، وإنما هم شرائم من بقايا أنظمة اجتماعية أبوية طللية حافظت بكل بداوة وتعام على جميع شوائب البادية التي جاء منها الثوار المزيفون ليتحكموا بمصائر شعوبهم في العالم العربي المسكين. إن أية مراجعة للمشهد العام في العالم العربي سترينا كم عقد أو كم قرن قادنا الثوريون إلى الوراء، ذلك أنهم هم المسؤولون عن وضع الشعوب العربية في حال انتظار المعركة الحاسمة، "الحواسم"، التي هي "أم المعارك" وخالتها وربما "عمتها"! لقد بقينا ننتظر على دق طبول المسير العسكري: "يس يم، يس يم" حتى اكتشفنا أعداء جددا: أعداء لم يكن أحد يفكر بهم من قبل، ذلك أننا لم نكن نفكر بأن لنا أعداء من ديننا ولكن من طوائف أخرى: فدخلنا الحروب ضدهم وخرجنا بما خرجنا به من جروح تاريخية لا تندمل.

لاحظ كيف يزداد المشهد سوداوية اليوم، إلى درجة أن طالباً عربياً شاباً قال لأستاذه في الجامعة: " أستاذ إبحث لك عن دولة أجنبية، لا تبقَ هنا، في الدول العربية، لا تتوقع خيراً من هذه البلدان! كم هي مشحونة بالمعنى مثل هذه النصيحة، خاصة وإنها تأتي للأستاذ المذكور من شاب بقدر عمر أبنائه. لاحظ حجم الأمل الذي كان يراودنا بالمستقبل في خمسينيات وستينيات القرن الماضي؛ ثم قارنه بحجم اليأس الذي يخامر عقول وقلوب شباب هذا الجيل الذي، هو الآخر، في انتظار المعركة، الحاسمة، "الحواسم"!

كيف يمكن للكثير من العرب أن يواجهوا هذا النوع من المرارة والسوداوية المتعمقة في دواخل أبناء الأجيال الجديدة وهم ما زالوا في الثانويات والجامعات؟ وكيف يتسنى لهم التواصل في برامج الابتعاثات العلمية إلى الجامعات الغربية، وهم يدركون جيداً ان تواصل الاستبداد والديكتاتوريات الشمولية التي تتاجر بدماء شعوبها في انتظار "هذه هي الحاسمة". لا يمكن أن يقنع عقلاً ذكياً قادراً على استشراف المستقبل بالبقاء في بلدان لم تزل تستحضر أمراض الماضي وعقده النفسية والطائفية، بكل حيوية وعنفوان، كي تدور بها إعلامها وسياساتها الخارجية. كيف يمكن ارتكان الأدمغة الذكية إلى سيادة قيم البداوة في دول تقف في مقدمة طابور المطالبة بالديمقراطيات والحريات؟ إنها حال لا تطمئن حتى البسطاء، فكيف لنا بالأذكياء القادرين على رؤية الآتي الداهم بأبنائهم وبناتهم في المستقبل؟

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:

١. يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .

٢. ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:

٣. لا تزيد المادة على ٧٠٠ كلمة.

ideas@almadapaper.net